



بقلم: أحمد الشيخ*

ما أكثر ما تقدّف به وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي هذه الأيام من مقالات وتحليلات لاقتحام مقر الكونغرس الأمريكي البرج العالي للديمقراطية الأمريكية!

يحار المرء بين ما يطرحه المناهضون عن الديمقراطية الأمريكية وحيويتها وقدرتها الدينامية المقارة في بنيتها التاريخية المتصلة بالمووروث الثقافي والاجتماعي الأوروبي وما يحكمها من ضوابط توّجّها من لها المتوازن والرجوع عن الانحراف ومعالجة الخلل وبين أولئك الذين يقولون إن ما حدث في البرج العالي يحمل في ثناياه ما هو أعمق من أزمة عابرة للديمقراطية وإلياتها الليبرالية التنويرية الحديثة أو ما بعد الحديثة.

إنها أعراض أزمة أخلاقية اجتماعية وثقافية مركبة تنخر في عمق أعماق مجتمع لم يمض على استقلاله إلا أقل من 250 عاما. ولما ريب أن المفكرين والكتّاب الأمريكيين أقدر على سبر أغوار تلك الأزمة ممن يراقبون الأحداث من الخارج مهما أوتوا أو توفر لهما من المصادر ووسائل الاتصال والمعرفة.

لذلك فإن ما يهمني هو كيف سنستوعب نحن في العالم العربي أبعاد ما حدث في أمريكا سيدة العالم التي جعلت منها أنظمتنا وحتى بعض أناسنا قدراً نتعبده من دون الله؟ فهل سنستخلص العبر مما حدث ونطرح الأسئلة التي يستوجب طرحها العقل والمنطق السليم؟

كيف سنستوعب نحن في العالم العربي أبعاد ما حدث في أمريكا سيدة العالم التي جعلت منها أنظمتنا وحتى بعض أناسنا قدراً نتعبده من دون الله؟ فهل سنستخلص العبر مما حدث ونطرح الأسئلة التي يستوجب طرحها العقل والمنطق السليم؟ نعم ما زالت الإمبراطورية الأمريكية هي القوة العسكرية الأعظم في العالم وإن كانت تلك القوة تجد اليوم في روسيا والصين من ينافسها عسكريا واقتصاديا وتحسب له ألف حساب. ومع ذلك فلا بد أن نسأل أنفسنا: هل أن أمريكا حقا قدر مقدور ينبغي للأمة أن تربط نفسها به برباط مقدس لا فكالك منه؟

ها نحن من محيطنا إلى خليجنا مع أن هذه النسبة يتنازعها الوهم والواقع بما يكاد يجُربُ تاريخها نستنجد بأمريكا كلما استشعرنا خطرا من قريب أو بعيد. فما تسمه لنا على أنه عدو لدود يصبح مسطورا لدينا في لوح محفوظ أكان متخيلا بوهم تدسه أمريكا في أنفسنا وعقولنا أو كان حقيقيا يمكن لنا أن ذواجهه من دون أمريكا لو أردنا وعرضنا قدراتنا.

وما تزفه لنا أمريكا على أنه صديق وحليف نضمه في سويداء قلوبنا ونجعل منه حليفا نستصرخه وما هو بمصرخنا فننتظر وقد عميت علينا الأنباء أن يحميننا من ذلك العدو المتخيل أو الحقيقي على السواء ولو كان هذا المسّ تصرخ شيطاننا طارئا عابرا مغتصبا فتشد إليه الرحال ونتوسل عند أعتابه المخضبة بدماء أهلنا!

تقول أمريكا هذه القطعة من الأرض لكم فنتراقص فرحا مثل أطفال نثرت على روّ وسهم الحلوى أو اللعاب وربما تقتتل قبائلنا دفاعا عن المضارب التي كتبتها لنا أمريكا.

وتقول لنا أمريكا هذه المقطعة من الأرض ليست لكم فنسلخ عنها هويتنا كما تسلخ الأفعى جلدها كأن لم يدرج آباءنا على تلك الأرض ويخضبونها بدمائهم بل ربما ينفيها بعضنا من الوجودان والذاكرة ويستزرعون مكانها وعود أمريكا الموهومة. نتخاضم بطلب من أمريكا ومن دونه فلا نصطلح إلا أذنت أمريكا وحقت. تقول ادفعوا فندفع واسكتوا فنسكت وهكذا دواليك! هذه أمريكا التي نقدر على نفسها اليوم بعد أن كانت تدبر الانقلابات خارج شواطئ محيطها الكبيرين. أو ليس في هذا آلية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؟

أمريكا التي تعهدت بنشر الديمقراطية على طريقتهما في العالم تنقض اليوم غزلهما أنكاثا فكيف للناس أن يقبلوا ببضاعتها المزجاة؟ أمريكا التي تغنى المهاجرون الأوائل والبرو لساء الملاحقون بها مدينة متألثة على رأس جبل وظافت بهم فيها أحلام المال والثراء تكاد تطفئ شعلتها المتألثة بنفسها وتحول حلمها إلى كابوس.

أمريكا التي تعهدت بنشر الديمقراطية على طريقتهما في العالم تنقض اليوم غزلهما أنكاثا فكيف للناس أن يقبلوا ببضاعتها المزجاة؟ هل ستكلف الأنظمة ومراكز الفكر والشعوب نفسها عناء مراجعة تاريخ أمريكا كي ندرك لماذا لا نلت أمريكا إلى ما هي عليه اليوم؟ لم ينكر أولئك الغزاة المهاجرون الأوائل من عتاة العرق الأنجلوساكسوني مطامعهم الحقيقية وهم يحطون على شواطئ بوسطن: الحرية بلا رقيب ولما ضمير من أجل جمع الثروة بعرق العبيد ودماء السكان الأصليين الذين عفا عليهم فأصبحوا كأن لم يكونوا. ونسل أولئك الغزاة المستوطنين هم من يطلق عليهم اليوم اسم السكان البيض الأنجلوساكسونيين (wasp). وهم يو منون إيماننا لا يتزحزح بتفوق العرق الأبيض فلا حق قبل حقهم ولما يتساوى معهم غيرهم يشبعون حتى المتخمة ثم يأكل السود والملونون من الفضل المتبقي يشربون ويسكرون ولما لا يظفون عليهم خدما غير مخلصين. أمريكا لهم وحدهم خالصة من دون الخلق على أرضها بل كوكب الأرض كله سوق لشركاتهم وميدان لجندهم فويل لكل من يرفع رأسه ليقاوم.

كيف لنا إذن أن نستأمن هو لاء على حاضرنا وعلى أنفسنا ومستقبل أجيالنا وأموالنا؟ ومع أننا نحن من يستجرون فما مصيرنا إلا كمصير من أجار أم عامر ما لم نعد إلى رشدنا.

تري لو كان أولئك الذين اقتحموا مبنى الكونغرس من السود أو المسلمين هل كان عدد القتلى سيقتصر على خمسة فحسب؟ وهل كانت الشرطة ستتحفظ كما فعلت هذه المرة في استعمال العنف ضد المقتحمين؟ فما أمحت من أذهان الناس بعُد صور المظاهرات التي قامت بعد مقتل الأمريكي الأسود جورج فلويد خنقا تحت ركلة شرطي أبيض. بل إن بعضهم يقول إن هو لاء الذين اقتحموا الكونغرس محتجون مسالمون وقلّة منهم يساريون مندسون ليخربوا. أي استخفاف هذا بعقول الناس وأي سيولة للقيم والأخلاق! تري لو كان أولئك الذين اقتحموا مبنى الكونغرس من السود أو المسلمين هل كان عدد القتلى سيقتصر على خمسة فحسب؟ وهل كانت الشرطة ستتحفظ كما فعلت هذه المرة في استعمال العنف ضد المقتحمين؟

قد لا تتكرر حادثة اقتحام برج الديمقراطية الأمريكية لكن العلل التي يعاني منها المجتمع لن تبرا ولن يزيدها الانقسام الحاد للأمة الأمريكية إلا سوءاً فتنتخب أمريكا في قادم أيامها من هو أسوأ من دونالد ترامب فلا يكتفي ذلك المنتظر العتيد بمنح إسرائيل القدس والضفة الغربية والجولان بل سيطالينا بأن نعيد لأهل خيبر حقوقهم وبأن نطبع ونكشف لهم كل عوراتنا وبأن نخلي الأرض لتقوم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات وما بعدها وأغلب الظن أننا سنفعل ما دامت شعوبنا مغيبة عن دوائر الفعل والقرار. هذه أمريكا الأنغليكانية المتصهينة التي تنتظر عودة المخلص المسيح ليقود المو منين في المعركة الفاصلة المهيرمغدون فيفني أعداءه حتى من اليهود وغيرهم من الغويم الأميين. وهذا رئيسها الجديد يتفاخر بصهيونيته أبا عن جد فماذا نتظر ولماذا تعمى قلوبنا التي في الصدور؟

هذه أمريكا التي تقول لن نسمح لأي منكم أن يبلغ من القوة ما يتيح أن ترف جفوننا فتخاف منها إسرائيل بل ستبقون تحت سيطتها تجلذك في سوريا والعراق وفلسطين وفي تخوم المغرب العربي وصحاري السودان وأقاصي مصر بصعيدها وبحرها وبعضنا ينام ملاء جفونه ظاناً أنها ستحميه!

ستنشل أمريكا بنفسها كثيرا فهلا وجدنا لأنفسنا متنفسا كي ننشل بإصلاح أحوالنا ومكاننا في عالم لا يحترم إلا القوي حتى وإن كان فاجرا مثل دونالد ترامب!